شخصية مصر فى الأدب العبرى الحديث
صورة مصر في أدب الرحلات

أ.د. زين العابدين أبو خضرة

عميد كلية الآداب – جامعة القاهرة

أستاذ الأدب العبرى

مدخل :

قام الكثير ممن سبقونى إلى مضمار الأدب العبرى بإجراء العديد من البحوث والدراسات التى تلقي الضوء على صورة "العرب" فى الأدب العبرى فى عصوره المختلفة، فأبلوا فى ذلك بلاءً حسناً، وحفلت دراساتهم بالعديد من أوجه الكمال والرقى التى تفخر بها مكتبتنا العربية، إلا أن أحداً لم يول صورة مصر – فى هذا الأدب – دراسة تليق بدورها القيادى والريادى لأمتها العربية، وهو الدور الذى لم ينقطع فى أية فترة من فترات التاريخ، بل هو الدور الذى أدى إلى ظهور مصر بشكل دائم ومتصل فى الأدب العبرى عبر مراحله المختلفة؛ ولذا رأينا أن نطرق هذا المجال، يحدونا فى ذلك أمل الإسهام فى إجلاء هذه الصورة، والوقوف على ملامحها وذرائعها ونتائجها.

وربما يرمينا أحد بالإقليمية. وكأن الإقليمية باتت جريمة، أو كأنه من المحتم علينا –حين نتعاون مع أشقائنا – أن نبرز ذواتهم وننسى ذاتنا أو نتناساها، وهو ما نأباه لمصر بتاريخها الطويل وشخصيتها المتفردة، وتجارب أبنائها العديدة مع المكان والزمان منذ فجر التاريخ الإنسانى، بل هو ما تأباه عروبتنا التى تسرى فى الدماء؛ فنحن حين نتحدث عن مصر، فإنما نتحدث عن زعامة الأمة العربية وقلبها النابض. وهذه الزعامة ما هى إلا تكليف وتقليد، تكليف فرضه عليها موقعها الجغرافى فى قلب أمتها العربية، وتقليد رصدته صفحات التاريخ وتعددت فصوله، ومازالت تتعدد حتى الآن، ولذا فإن الحديث عن مصر يجب أن يحسب لنا لا علينا.

الارتباط الدائم بين مصر والأدب العبرى :

تتبوأ مصر مكانة أدبية مهمة فى الأدب العبرى، قديمه ووسيطه وحديثه، فرضها تاريخها الذى ارتبط به بنو إسرائيل قبل عصر موسى وأثناءه وبعده، كما فرضتها حضارتها القديمة التى شكلت نقطة ارتكاز أساسية فى مراكز الأبحاث العلمية المتخصصة في علوم المصريات والحضارات القديمة فى العالم، كما يفرضها وضع مصر في منطقة الشرق عبر مختلف العصور، وقيادتها لشعوب المنطقة العربية بأسرها ثقافياً وحضارياً، حرباً وسلماً، تصدياً لاستعمار جثم فوق صدور هذه الأمة ردحاً طويلاً من الزمن، ناهيك عن علاقة مصر القديمة قدم التاريخ بفلسطين من ناحية، وتصديها لدعاوى الصهيونية ومحاولتها القفز فوق حقائق التاريخ من ناحية أخرى، مما جعل مصر فى محور الصراع الدائم والمستمر بين أمتها العربية

والصهيونية، حتي باتت كما يقول بعض اليهود "عدواً تاريخياً للصهيونية"[1]. كما فرض هذه المكانة أيضاً سماحة مصر، وتعايش الأديان فيها، مما جعلها – فى كثير من العصور التاريخية- ملاذاً لكل مضطهد أو مظلوم من اليهود أو من غيرهم.

فمصر هى المكان الذى نزل إليه نبى الله يعقوب وبنوه هرباً من مجاعة قاسية اجتاحت فلسطين، فأقاموا فيها، وطاب لهم المقام، وحظوا بما شاؤوا من خيراتها، بل هى أيضاً المكان الذى انقلب فيما بعد ووفقاً لما يقوله أحد أنبيائهم "سجناً" أو "بيت العبيد" أو "كور الحديد"[2]، وهى "المنفى الأول" الذى "نُفى" إليه بنو إسرائيل، حتى باتت –فيما بعد- رمزاً لـ "منفاهم التاريخى" بوجه عام، وهى المكان الذى أعد فيه بنو إسرائيل عدتهم للخروج إلى فلسطين وإقامة مملكة سليمان، حيث تلقى موسى الوحى أثناء الرحلة، وفوق سيناء المصرية أيضاً.

وهكذا ظلت مصر حيةً فى ذاكرة بنى إسرائيل، مهيمنةً على أفئدتهم، بالرغم من ذلك الانقطاع الطويل بينهما. ورغم العداء الذى دبَّ بينهما منذ قرون كثار من عمر الزمن، إلا أن مصر بقيت – بالنسبة لهم – مكاناً ذا أبعاد رمزية يرمز إلى القتل والنفى والتعذيب والعبودية، وتجمدت عقولهم ومشاعرهم النفسية عن مصر عند هذا الرمز إلى حد كبير، ولذا ظلت مصر لديهم مجهولة الحقيقة، ولم يدر بخاطرهم – ربما عن قصد أو غير قصد- أن مصر منطقة ذات حدود جغرافية معينة، يعيش فيها مجموعة من البشر، لهم سلوك إنسانى، وأنها ليست "سجناً" تحيطه الأسلاك الشائكة ويفيض بالعتاة والمجرمين، أو جُبّا سحيقا يبيد كل من يهوى إليه!!

وبالرغم من أن بنى إسرائيل قاموا باتصالات مباشرة بينهم وبين مصر فى فترات متقطعة عبر العصور التاريخية المختلفة، إلا أن عدد من أقام فيها من أدباء العبرية، وعرفها عن قرب كان قليلاً، بحيث لم تذكر مصر فى هذه الاتصالات إلا لماماً.

بيد أن الأدوار تبدلت من مطلع القرن التاسع عشر، فقد غزت مصر الأدب العبرى من أربعة محاور، يبدأ المحور الأول بعد أن حُلَّت رموز حجر رشيد، حيث بدأت الحضارة المصرية القديمة تفصح بجلاء عن أسرارها ومكنوناتها، ووفد العديد من علماء الآثار الأوروبيين إلى مصر، تحدوهم الآمال العريضة فى الوصول إلى بعض هذه الأسرار، كما أرسلت مصر العديد من أبنائها إلى أوروبا كى ينهلوا من معين العلوم الحديثة، فيما سُمى بـ "الانفتاح المصرى على أوروبا" وكان لهذه البعثات – الأوروبية والمصرية- الأثر الكبير فى غزو مصر للمؤلفات الأوروبية[3]، فحين عادت الوفود الأوروبية إلى بلادها سجلت ما توصلت إليه من نتائج، كما كتبت البعثات العلمية المصرية إلى أوروبا بدورها عن بلادها وحضارتها وتاريخها، ولذا

---

1. نوريت جوفرين : مصرايم بسفروت هاعفريت شل هدوروت هأحرونيم. دفيم لمحقار بسفروت. أونيفيرسيتات حيفا 1985. ص260.
2. سفر إرميا 11 : 4.
3 . Aubrey Selincourt : The Worad of Horodotus Little Brown and Compony. Boston, Toronto- 1962, pp.217.

حفلت الآداب الأوروبية – على اختلاف أنواعها ومراكزها واتجاهاتها – بفيض من المعلومات عن مصر قديماً وحديثاً.

ولما كان الأدب العبرى يعيش آنذاك فى كنف الآداب الأوروبية، ينهل منها ما يشاء، فقد غزته المعارف الجديدة عن مصر، فطفق يعبر عنها شعراً ونثراً، وهذا لا يعنى أن اتصال الأدب العبرى الحديث بالحضارة المصرية كان يقتصر على ما تقدمه الآداب الأوروبية، بل إن مجموعات كبيرة من اليهود – على اختلاف جنسياتهم – كانت تنظم العديد من الرحلات إلى مصر؛ بهدف الإطلاع على تلك الحضارات التى بهرت العالم كله، وكان لهذه الرحلات بلاشك انعكاس كبير على نفوس الأدباء الذين شاركوا فيها، فأخذوا يعبرون عن ذكرياتهم التى حملوها معهم.

أما المحور الثانى فإننا نعثر عليه فى أدباء عبريين نشأوا فى مصر – طوعاً أو كرهاً – واستوعبوا عنها الكثير، ثم هاجروا إلى فلسطين، وهناك سجلوا سيرة حياتهم، وما ترسخ فى أذهانهم عن موطنهم الأول، فمنهم من ذكرها خيراً وتقريزاً، ومنهم من ذكرها سلبية ونكراناً، وسواء حدث هذا أو ذاك، فإن الحصيلة النهائية هى أن مصر استمرت محافظة على مكانتها فى الأدب العبرى الحديث، وبات العديد من أدباء العبرية – وخاصة ذوو النشأة المصرية- يلقون الضوء على مصر وطبيعتها وحضارتها وتاريخ أبنائها الطويل مع الزمان والمكان، وكما عرفوها فى طفولتهم وشبابهم.

ورغم أن كل أديب – من هؤلاء الأدباء – يصوغ نتاجه الأدبى بشكل فردى، إلا أنهم يلتقون جميعاً حول هدف واحد، هو البحث الدائب عن الأصل والجذور، فازدواجية الموطن وتوزع الولاء الذى يعانى منه المجتمع الإسرائيلى دفعت الكثير من الأدباء والكتاب العبريين كى يتحدثوا فى نتاجهم بإسهاب عن موطنهم الأول الذى هاجروا منه، وكأنهم فى حلبة صراع أو تنافس، أيهم أكثر بيانا لموطنه الأول فيلقى الضوء عليه.

على أنه من الحق أن نقول إن الأوصاف التى ترد فى مثل هذه المؤلفات لا تتسم دوما بالإيجابية، بل إن السلبية أحيانا ما تسيطر عليها وتشكل خطها الرئيسى، ربما ليثبت كل أديب من هؤلاء أنه لاقى من العنت والاضطهاد أكثر مما لاقى غيره، أو أنه خاض الطرق الوعرة، ثابتاً على دينه وعقيدته، متحدياً أشق الصعاب، ليصل فى النهاية إلى "أرض الآباء"! وعلى أية حال فلا يكاد يكون هناك أديب من أدباء العبرية فى العصر الحديث غير حريص على إبراز مواطن القوة والضعف فى موطنه الأصلى، وبات هذا الأمر طبيعياً ومنتشراً فى المجتمع الإسرائيلى بشكل كبير حتى اليوم.

أما المحور الثالث فتشكله الحروب التى خاضتها مصر قائدة لأمتها العربية ودفاعاً عنها، وحماية لمقدساتها وحفاظاً على الأرض والعرض والولد، ونضالها ضد الصهيونية والاستعمار، وما يحيكانه من مؤمرات تستهدف المنطقة العربية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وهى الحروب التى كان لها أكبر الأثر فى مجال

الإنتاج الأدبى العبرى بشكل عام، حيث شغلت مصر – بأوصافها التوراتية السلبية – حيزاً لا بأس به من هذا الإنتاج،فأخذ الأدباء العبريون يصورونها باعتبارها قاتلاً بربرياً متعطشاً لسفك الدماء دونما سبب واضح !! بينما يصورون بنى إسرائيل باعتبارهم أناساً مسالمين طيبين محبين للخير ولكنهم يضطرون لخوض الحروب دفاعاً عن حياتهم ووطنهم التاريخى ضد ذلك القاتل!! ومن عجب أن تسود هذه النغمة إذا ما حققوا نصراً أو حاقت بهم هزيمة !!

ونلمس المحور الرابع بوضوح فى السنوات الأخيرة، حيث عاود الإسرائيليون اتصالهم بمصر عن قرب، وخاصة بعد توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، وهى المعاهدة التى أتاحت لهم الفرصة كي يقوموا بزيارة مصر، ويروا عن قرب ما كان يرواد خيالهم وأحلامهم فى بلدان الشتات، وباتوا يحكمون على ما ترسخ فى ذهنهم عن مصر، وبات الواقع الملموس هو الفيصل بين الحق والظلم، وكان لذلك كله أثر كبير على وضع مصر فى الأدب العبرى، فقد سجل الأدباء الزائرون ذكرياتهم عن هذه الزيارات بحلوها ومرها، وكان النثر – فى ذلك- أسبق من الشعر وأكثر منه تعبيراً، ذلك أن تحرر النثر من قيود الوزن أو التفيعلة يمنحه القدرة على وصف الطبيعة وتصوير المكان بدقة أكبر وتفصيلات أكثر إسهاباً.

ولقد ولّد لقاء أدباء العربية بمصر فى العصر الحديث قدراً لا بأس به من وصف الطبيعة المصرية من منطلق الواقع الملموس، بعد أن كانت – عند الكثيرين منهم – خيالاً يداعب الجفون. وتوفرت لدى الإسرائيليين العديد من التحقيقات الصحفية، بالإضافة إلى انطباعات السياح الإسرائيليين الذين يزورون مصر زيارات خاطفة، فحظى المواطن الإسرائيلى بذلك بالعديد من المعلومات والمعارف عن مصر بالرغم من أنه لم يزرها، ولذا بات أثر مصر جليا فى الأدب العبرى بوجه عام نتيجة لهذه الاتصالات.

وهكذا نجد مصر مرتبطة بالأدب العبرى الحديث – منذ بدايته وحتى الآن – ارتباطاً شديداً. ولما كان وجود مصر فى الأدب العبرى أكبر من أن نحصيه إجمالاً أو أن نصل إلى أعماقه من النظرة الأولى، لذا رأينا أن نصنف هذا الوجود إلى عدة صور، سنحاول فيها أن نؤكد على وجود الصلة وتتابع العلاقة بين هذه الصور وبين المرحلة الزمنية التى ظهرت أثناءها وأثرت فيها، وسيعرض هذا البحث لواحدة من هذه الصور وهى صورة مصر فى أدب الرحلات لما له من أهمية كبرى فى التكوين الثقافى للمجتمع الإسرائيلى.

صورة مصر فى أدب الرحلات :

كان لتشتت اليهود في معظم دول العالم أثر كبير في إزدهار أدب الرحلات العبرى، فقد وفرت لهم ظروفهم الحياتية التنقل والاختلاط بالعديد من شعوب العالم، وبالتالي كثرت معارفهم ومعلوماتهم عن كل أمور الحياة في هذه الشعوب، وشكلت هذه المعارف مادة رئيسية في أدب الرحلات، ولذا طفق كل أديب يسجل ذكرياته عن البلد الذي عاش فيه، فتوفر للأدب العبري كمٌّ هائل من أدب السيرة والرحلات، يكاد

يغطي دول العالم وشعوبها.

ولم تنقطع علاقة اليهود بمصر في أي عصر من عصور التاريخ، حيث كانوا يفدون إليها مهاجرين أو زائرين أو هاربين من اضطهاد، ومن بين هؤلاء الزائرين من كان يطيب له المقام، فيستقر فيها بشكل دائم متمتعًا بسماحة أهلها وتعايش الأديان فيها، ومنهم من كان يكتفي بفترة من الزمن ثم يعود إلى بلاده على إثر زيارته فيروي أو يكتب عما رآه وخالج شعوره حين كان على أرض مصر.

والحق أن كلامنا هذا لا يقتصر على العصر الحديث فقط، بل ينطبق أيضًا على العصور القديمة والوسيطة، فها هو يهودا بورلا[4] يروي قصة حياة يهودا اللاوي[5] –شاعر العبرية الكبير في العصور الوسطى- وزيارته لمصر عام 997م وسعادته الغامرة، وانفعاله الشديد برؤيته لـ"طبيعتها الساحرة ونيلها العظيم وحضارتها الشامخة وأهلها الكرماء" حتى أنه قرض فيها العديد من قصائد الوصف والمديح الذي لا يتسع بحثنا هذا لتناولها[6].

أما في العصور الحديثة فقد تعددت هجرات اليهود أو زياراتهم لمصر، وانطلقت جميعها من ستة محاور رئيسية هى:

1.المحور الأول:

نشأ هذا المحور في سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر، على إثر تزايد الحملات المعادية لليهود في الامبراطورية القيصرية، والتي تخفت تحت ستار الوطنية أو الحرص على الدين ومصالح الكنيسة، بالرغم من أن الدافع الأساسي لها كان غالبًا محاولة السلطات القيصرية الاستبدادية إلهاء الجماهير المقهورة، وشغلهم

---

4. يهودا بورلا 1886- 1969: قصاص إسرائيلي، ولد في القدس لعائلة من الحاخامات الشرقيين، ولذلك تربى تربية دينية تقليدية متعصبة. ويعتبر بورلا أول كاتب بالعبرية الحديثة ينتمي لأصول شرقية. وقد خدم في الجيش التركي إبان الحرب العالمية الأولى، وعمل بعد ذلك مديرًا للمدارس العبرية في دمشق لمدة خمس سنوات، وذهب إلى أمريكا الاتينية عام 1946 مندوبًا عن الصندوق القومي اليهودي. وبعد قيام الدولة عمل مديرًا لبعض دور النشر والصحافة. وقد بدأ بورلا الكتابة في سن مبكرة، واكتشف أن الأدب العبري الحديث ينصب كله على حياة اليهود الغربيين، فقرر أن يعالج حياة اليهود الشرقيين في قصصه، وكانت أولى قصصه "لونًا" تصويرًا لقصة حب وقعت حوادثها في القدس القديمة، ومن أشهر قصصه "بدون نجم"، و "الزوجة المكروهة". كما كتب قصصًا تاريخية منها: قصة حياة يهودا هاليفي التي نتناولها في كتابنا.

5. يهودا هاليفي: أكبر الشعراء العبريين في العصور الوسطى، لقب أيضًا بأبي الحسن اللاوي، وقد ولد في مدينة طليطلة عام 1080 ثم درس الطب. وكان اللاوي مولعًا بالشعر فقرضه في العديد من الأغراض كالمديح والغزل ووصف الطبيعة، وكذا الأشعار الدينية وقد نظم أشعاره كلها على غرار الشعر العربي، وهو ما فعله جميع أدباء العبرية في العصور الوسطى تقريبًا، حيث عايشوا الشعر العربي هناك إبان الفتح الإسلامي للأندلس، فنقلوا بحوره وأوزانه وقوافيه وأخليته وأغراضه، وبات الشعر العبري أنذاك يشبه الشعر العربي إلى حد كبير. ويمتاز شعر يهودا اللاوي بعمق العاطفة وقوة الخيال وسلاسة الأسلوب وجزالة اللفظ، وهو مع ذلك فيلسوف له دراية واسعة بفروع الفلسفة، ويظهر ذلك جليًا من مؤلف له في الفلسفة عنوانه: "الحجج والدليل في نصر الدين الذليل".

6. ربى يهودا هاليفى. ميئيت يهودا بورلا. هوتسأت ماسادا. تل أفيف 1968. ص 105 -123.

عما يعانونه من بؤس وتخلف، بالإضافة إلى محاولة الطبقة البرجوازية الروسية التخلص من منافسة التجار اليهود لهم، ولقد وصلت هذه الحملات إلى ذروتها مع سلسلة المذابح الموجهة ضد كل من يتصدى للحكم القيصرى ومن بينهم اليهود، حيث أطلقوا على هذه المذابح "بوجروم" تجمعات اليهود وأحيائهم المسماه "بوجروم". وقد شكلت هذه المذابح دافعًا رئيسيًا لليهود كي يؤسسوا العديد من الجمعيات الصهيونية التي تتبني قضاياهم وتشجع الهجرة إلى فلسطين فرارًا من هذا الاضطهاد[*] وما إن انتهى ذلك العقد من الزمن، حتى تدفق اليهود إلى فلسطين أملاً في خلاص أو طمعًا في احتلال.

وكان هؤلاء المهاجرون يمرون ببلاد المنطقة وهم في طريقهم إلى فلسطين، فمنهم من مر بسوريا ولبنان، ومنهم من مر بالعراق والأردن، وكثير منهم من مر بمصر عن عمد ليشاهد -عن قرب- تلك الحضارة التى لا يعرف عنها سوى ما سمعته أذناه أو قرأته عيناه، فعاش العديد منهم في مصر فترات محدودة من الزمن، ولكنها تركت في نفسه العديد من الذكريات.

2.المحور الثاني

ينطلق هذا المحور من تلك الزيارات التي كان يقوم بها يهود شرق أوروبا إلى مصر، حيث كانوا يشكلون أفواجًا سياحية ضخمة، تضم فيما تضم اليهود وغيرهم، فتأتي هذه الأفواج إلى مصر للاستمتاع بشمسها الدافئة ورؤية آثارها القديمة، وكان ذلك في أعقاب انتشار العلوم والمعارف الأثرية في أوروبا، وعند عودة هذه الأفواج إلى بلادها، وكان أعضاؤها من الأدباء يكتبون عما خالج شعورهم أثناء الرحلة.

3.المحور الثالث

يتأسس هذا المحور على النشاط المالي والتجاري الذي يمتهنه اليهود، ويفضلونه على سائر الأعمال الاقتصادية، والذي يلزم المشتغلين به أن يجوبوا بلاد العالم مجيئًا وذهابًا، بحثًا عن الصفقات والأرباح، فأتى تجارهم إلى مصر، وكانت لهم أدواتهم في التعبير عما حملوه من ذكريات.

ونتيجة لهذه المحاور الثلاثة فإن الصحف اليهودية، التي كانت تصدر آنذاك في شرق أوروبا، فاضت بالمقالات والقصائد والقصص والأخبار التي تدور جميعها حول مصر وحضارتها وطبيعتها وأهلها. وقد أولت تلك الصحف لمصر هذا الاهتمام انطلاقًا من أمرين: أولهما تأثرها بتلك المعارف الأثرية، وثانيهما أن هذه الصحف كانت تهتم كثيرًا بالتجمعات اليهودية في بلاد الشرق، فتتبنى قضاياهم ومشكلاتهم[7]

(*). من هذه الجمعيات جمعية بني موسى التى أسسها أحاد هاعام سنة 1889، وجمعية بيلو التى أسسها بعض الطلاب اليهود من أعضاء محبة صهيون في روسيا عام 1882، وهى جمعيات كان هدفها الأول الهجرة إلى فلسطين.

7. نوريت جوفرين : مصرايم بسفروت هاعفريت شل هدوروت هأحرونيم. ص260.

وهو ما أدى إلى اهتمامها أيضًا بالبلاد التي تعيش فيها هذه التجمعات. وهكذا توفرت لتلك الصحف المادة الخاصة بمصر، سواء عن طريق المهاجرين العابرين أو الزائرين العائدين.

4.المحور الرابع

ويرجع إلى الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، حيث فرَّ بعض اليهود من القدس إلى مصر، تجنبًا لقوانين الرقابة التركية، واستطاعوا أن يصدروا فيها العديد من الصحف باللغة العربية، مثل "المقطم" و "المقتطف" وباللغة الفرنسية مثل La Renaissance Juive النهضة اليهودية[8] بل واللغة العبرية أيضًا مجلة هبوعيل هتسعير أي "العامل الفتى" التي كانت تصدر في أول عهدها في القدس[9]. وقد عاش هؤلاء المنفيون أو اللاجئون حياتهم بكل أبعادها، بل أنهم أصدروا صحيفة جديدة تعبر عن طائفتهم تحت عنوان "في الغربة"[10] وأشرف على تحريرها يوسف أهارونفيتش[11] وزوجته دبورا بارون[12]. وبعد احتلال بريطانيا لفلسطين وأثناء الحكم العسكرى، وبسبب الرقابة العسكرية البريطانية، طبعت في القاهرة –ولمدة عامين- صحيفة "أنباء من الأرض المقدسة" وملحقها الأدبي "هدية الأدب"[13]. ولا شك أن النهضة الصحفية التى صاحبت هؤلاء اللاجئين أدت إلى نوع من الازدهار الفكري والأدبي بينهم، كما تبوأت مصر – باعتبارها المكان الذي تصدر فيه الصحف- المساحة الأكبر فيها.

ثم اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى 1914- 1918، فجلس على عرش

---

8. عواطف عبدالرحمن: الصحافة الصهيونية في مصر 1897- 1954، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1980، صـ32: 33.
9. نوريت جوفرين : مصرايم بسفروت هاعفريت شل هدوروت هأحرونيم. ص260.
10. ريكليس . ى.ل : عم آهارونفيتش. هبوعيل هتسعير. شنات شلوشيم. ج29-30.
11. يوسف آهارو نوفيتس: 1877- 1937، صحفي إسرائيلي ولد في تل أبيب، وهو مؤسس مجلة "العامل الفتى"، ومن أوائل من ساندوا الحركة العمالية في فلسطين. تلقى في طفولته تعليمًا تقليديًا، وسافر إلى أوديسا حين كانت مركزًا للأدب= العبري. وهناك تلقى تعليمًا علمانيًا، وتعرف على أعضاء جمعية محبة صهيون. كما أسس رابطة طلائع صهيون؛ بهدف تشجيع الهجرة إلى فلسطين والعمل بها. كما شارك في المؤتمرات الصهيونية والاتحادات العمالية.
12. دبورا بارون 1896- 1956: أدبية عبرية ولدت في إيطاليا لعائلة يهودية متدينة، حيث كان والدها حاخام المدينة، وقد أثرت هذه البيئة المتدينة فيها تأثيرًا كبيرًا في مفاهيمها وثقافتها، وقد هاجرت إلى فلسطين عام 1911 حيث عملت رئيسًا لتحرير الملحق الأدبي للمجلة الأسبوعية "هبوعيل هتسعيل" فترة طويلة من الزمن، وقد عاشت في مصر في الفترة من 1915 حتى 1919 وبالتحديد في الأسكندرية، ونشرت قصصها الأولى في مجلتي همليتس، هشيلواح. وفاز كتابها "صغر" بجائزة بياليك عام 1933، وتعتبر دبورا بارون من الأدباء الذين صنعوا الشكل الفني المتطور في القصة العبرية الحديثة، تتميز كتابتها بالاختصار والتكثيف وبساطة الأسلوب، وتميل إلى التصوير أكثر منه إلى الحكاية، إلا أنها لا تصور التفاصيل، بل تركز على الخطوط العامة. وقد جمعت قصصها جميعًا بعنوان "قضايا" عام 1951، وإلى جانبها مجموعة "من الأمس" التى تعتبر تكملة لإحدى قصص المجموعة الأولى، وهى تحتوى على ثلاث قصص، منها قصة "المنفيون" التى نتناولها في الكتاب.
13. نوريت جوفرين : مصرايم بسفروت هاعفريت شل هدوروت هأحرونيم. ص260.

مصر السلطان حسين كامل. وتدفق آلاف اليهود إلى مصر قادمين من الشرق والغرب، وبخاصة من سوريا وفلسطين، فآوتهم مصر، ووضعت حكومتها العديد من الإمكانيات تحت تصرفهم[14]. وكان لذلك كله أثر كبير في أن يصوغوا لأنفسهم فكرة شاملة عن مصر شعبًا وحكومة.

5.المحور الخامس

نشاهد هذا المحور إبان الحرب العالمية الثانية التي أتاحت فرصة كبيرة أمام اليهود لزيارة مصر، فقد كانت البلاد تعج بالعديد من اليهود المتطوعين في جيوش الحلفاء، والذين تلقفتهم الطائفة الإسرائيلية في مصر بالترحاب، فأقاموا في مصر فترة من الزمن تجولوا خلالها في العديد من مدنها وقراها، وانخرطوا مع أهلها، وعايشوا طبيعتها وشاهدوا آثارها وحضارتها. وحين حطت الحرب أوزارها وخلا كل منهم إلى نفسه، بدأ العديد منهم يكتب ما ادخرته ذاكرته عن مصر.

6.المحور السادس

يرجع هذا المحور إلى ما بعد توقيع اتفاق السلام المصري الإسرائيلي، حيث تدفقت الرحلات الاسرائيلية إلى مصر كنشاط سياحي أو تجاري أو سياسي أو صحفي، وهي زيارات لم تستطع – في مجملها وحتى الآن- أن تحطم الحاجز النفسي الهائل بين الشعبين، بل لم تستطع أن تمحو ما علق بأذهان الكثير من بني إسرائيل عبر التاريخ من صفات سلبية لمصر.

وعلى أية حال فقد كانت مصر ملهمة لكل من قام بزيارتها من أدباء العبرية، فكتب عنها ما كتب، إيجابيًا أو سلبًا، تقريزًا أو إجحافًا، وفقًا لطاقاته الشعورية التى يبثها في موضوعه الأدبي، وطبقًا للقيمة الفنية التي يضمنها تعبيره، ولذا فإن وصف مصر –عند هؤلاء- شكل أحد المركبات الأساسية في أدب العبرية إبان تلك الفترة التي عاود بنو إسرائيل فيها اتصالهم بمصر سواء بمحض إرادتهم أو رغمًا عنها[15].

وإذا أتينا إلى صفات مصر التى ذكرها هؤلاء الكتاب نجد أنها تراوحت بين السلبية والإيجابية. وهذا أمر طبيعي إذا ما أدركنا العلاقة الوطيدة بين الحالة النفسية للأديب، وبين صوره وتشبيهاته، فليس من الطبيعي أن يصور الأديب مكانًا ذهب إليه عنوة وقسرًا بأنه جنة الله في الأرض، حتى ولو كان المكان ذاته يحمل العديد من الصفات الإيجابية، ذلك أن الارتباط النفسي للأديب بهذا المكان هو ارتباط سلبي، ولذا تخرج الصفات والصور سلبية بدورها. ففي مثل هذه الحالة يتجه الأديب العبري إلى استقاء الرمز من الصفات التوراتية، أو بمعنى آخر إلى استلهام الصور التى وردت مصر عليها في كتاب العهد القديم، وتضمينها مقطوعته الأدبية. ويزداد الأمر سلبية وإجحافًا إذا لم يكن الأديب ملمًا باللغة العربية، حيث يتضاعف لديه الشعور بالغربة والوحدة وقسوة الحياة ومعاناتها، فينطلق بفكره باحثًا ومنقبًا عن أشد الصفات

---

14. فؤاد حسنين على : من الأدب العبري، القاهرة، معهد الدراسات العربية، 1963، صـ211.
15. نوريت جوفرين : المرجع السابق. ص260.

سلبية ليصور بها مصر.

وعلى العكس من ذلك فإن الأديب الذى قدم إلى مصر عن طيب خاطر –سائحًا أو تاجرًا أو غير ذلك من الأمور- وتنفس هواءها، واستمتع بدفئها، وشاهد حضارتها، وعايش أهلها، وأدرك ميل شعبها إلى إكرام الضيف ومساندة الضعيف، ولمس بنفسه تعايش الأديان فيها واطلع على تاريخها بعمقه. هذا الأديب سيصور مصر تصويرًا إيجابيًا حقيقيًا، ينطوى على معايير تخالف ما ورد من صفات سلبية في كتاب العهد القديم، ويزداد الأمر إيجابية ومصداقية إذا كان الأديب على دراية باللغة العربية، واستطاع الاتصال مباشرة بأفراد الشعب، واطلع بنفسه على ثقافتهم وتقاليدهم، هنا ينأى بنفسه تمامًا عن الرمزية السلبية التى احتضنها أدباء الوصف التوراتي، وينخرط في خضم الصفات الإيجابية الحقيقية، بل يمكنه آنذاك أن يصف مصر بأنها "جنة الله في أرضه"[16]. وفرق كبير بين من وضع عصابة على عينيه، فرأى الدنيا ظلامًا حالكًا، وبين من ترك عينيه حرة فرأى الدنيا نورًا بهيًا. ولنقتطف اللباب من أقوال إحدى أديباتهم عن مصر حيث تقول: "هناك إحساس يحس به كل من يأتي إلى مصر غريبًا، وخاصة في أوقات السلم، هذا الإحساس هو أن يظل هذا الفرد مستمسكًا ومتشبثًا بهذه الأرض، محبًا لها ولخيرها ولبشاشة وجهها إذا ما أبعد عن ذهنه أنها أرض المنفى، أو بيت العبيد أو العدو التاريخي، هنا سيصفها بإيجابية، بل وربما بحماس بأنها "جنة عدن"[17].

وهكذا اتخذت مصر في نظر زائريها صورتين، صورة سلبية، وأخرى واقعية حقيقية، وتضاربت كل منها مع الأخرى، طبقًا لتضارب الحالة النفسية عند كل أديب، وعلى سبيل المثال يوسف حاييم برنر[18] ودبورا بارون اللذين طردا من مصر، فاختلطت لديهما الصور الرمزية بالصور الواقعية، وباتت مصر لديهما "توراتية" الصفات، وفي مقابلهما نجد إستير راب[19] تصف مصر بإيجابية شديدة، بل وأنها

---

16. نوريت جوفرين : مصرايم بسفروت هاعفريت شل هدوروت هأحرونيم. ص246.

17. المرجع السابق. ص246.

18. يوسف حاييم برنر: كاتب وناقد بالعبرية، من مواليد أوكرانيا، وهو أحد رواد اليهودية العمالية. تلقى في بداية حياته تعليمًا تقليديًا يهوديًا، ثم مال إلى كتب الهسكالا. ولقد تأثر –من سن مبكرة- بأفكار تولوستوي الاشتراكية الإنسانية. هاجر إلى لندن في بداية هذا القرن، وارتبط بحزب عمال صهيون. وفي عام 1906 أصدر مجلة "همعورير" حيث كانت آنذاك المجلة العبرية الوحيدة، ولكنها أغلقت بعد سنتين. في عام1909 هاجر إلى فلسطين. ومن أشهر أعماله "لقمة خبز" 1899.، و "الوادي العكر" 1900، و "في الشتاء" 1903، و "بين ماء وماء" و "من هنا ومن هنا". وفي قصص برنر يظهر في أجواء قصصه قدر كبير من الكآبة.

19. إستير راب: أديبة تكتب بالعبرية ولدت في بتاح تكفا عام 1899، كان عملها الأساسي في حقل التدريس، وبعد أن تزوجت عاشت في مصر لمدة خمس سنوات من 1920 حتى 1925، حيث عادت مرة أخرى إلى فلسطين. نشرت باكورة قصائدها عام 1912، كما نشر ديوانها الأول "أشواك" عام 1930. وشعر إستير راب لا تهيمن عليه تلك الروح التي هيمنت على الشعر العبري في الشتات من حيث نظرته إلى أبناء الشعوب الأخرى أو إلى اليهودي واليهودية، كما أنها لا تنتمي إلى أحد التيارات الأدبية الحديثة في إسرائيل، بل لا يمكن تصنيفها باعتبارها منخرطة في أحد هذه التيارات، حيث يغلب على أسلوبها طابع الكلاسيكية التي لازمت إنتاجها الأدبي

"جنة عدن" وذلك لأنها عاشت في مصر حياة طيبة كريمة في ظروف عادية تتسم بالأمن والاستقرار، واختفت الرمزية وسلبيتها من إنتاجها الأدبي تمامًا. وسوف نرى ذلك كله من خلال مناقشة بعض الأعمال الأدبية.

قصة "أحزان" للكاتب يوسف حاييم برنر:

كتب برنر هذه القصة عام 1909؛ ليروي فيها قصة هجرته إلى فلسطين، ولكنها لم تتوقف عند هذا الهدف الفردي، بل خرجت على نحو يحكي قصة الهجرة اليهودية في عمومها إلى فلسطين، وما ترتبط به من رحلات شاقة، وما لاقته الجماعات المهاجرة من صعاب وأزمات. ولذلك فإن القصة تجمع بين الانطباع الشخصي لدى كاتبها والانطباع العام لدى قومه، فهى حلقة في سلسلة طويلة تسيطر عليها الأحوال العامة التي مرَّ بها اليهود آنذاك.

أما الأحداث الواردة في القصة فليس من الضروري أن تكون أحداثًا واقعية حقيقية، مر بها الكاتب ذاته، ولكنها يمكن أن تكون أحداثًا وقعت ليهود آخرين أيضًا. ثم استقاها الكاتب نماذج معينة ليوضح –من خلالها- ما كان يحدث لليهود أثناء هجرتهم، وهو حين يذكر هذه النماذج، فإنما يذكرها في إطار الصراع بين الخير والشر، وهو أسلوب تتميز به قصص "برنر" بشكل عام[20] ولا شك أنه جعل عنصر الخير متمثلاً في الجماعات اليهودية المهاجرة، كما جعل الشر متمثلاً في الآخرين!. وفي القصة يظهر برنر في مدينتي الاسكندرية وبورسعيد اللتين كانتا محطتين رئيسيتين يمر بهما العديد من المهاجرين إلى فلسطين[21]. ويروي الكاتب ما حدث له ولأسرته في كل مدينة منهما، ففي الإسكندرية تجلى الشر متمثلاً في اثنين من اليهود أحدهما أعرج، ويرتدي الثاني قبعة، جاءا إلى ميناء الإسكندرية؛ ليساعدا المهاجرين اليهود الذين يكتنفهم الارتباك والحيرة في هذا البلد الغريب، والذين بدا عليهم الإعياء بعد أن بذلوا مجهودات شاقة وتعرضو للعديد من العثرات الصعبة في ألمانيا قبل أن يستقلوا السفينة مبحرين إلى الأسكندرية. ويروى الكاتب أن هذين اليهوديين تظاهرًا بمساعدتهم وتذليل عقبات الخروج من الميناء أمامهم، ولكنهما –في حقيقة الأمر- كانا يخططان لخداعهم وسرقتهم، حيث تسلما من المهاجرين العملات الألمانية بغية استبدالها بعملات مصرية، فسلبا منها جزءًا كبيرًا، ووضعاه في جيوبهما، وأعادا للمهاجرين جزءًا بسيطًا، كل ذلك وهما يتشدقان باسم الصهيونية وخدمة مصالح اليهودية، ويرفعان لواء العدالة، ويتباهيان بأنهما يهوديان!.

عملية الخداع هنا عملية حقيقية وليست رمزية، ذلك أن الخداع الرمزي في الأدب العبري يكون دائمًا من الشعوب الأخرى –وفي مقدمته العرب- لليهود، وليس من اليهود للشعوب الأخرى، أو من اليهود لليهود، وهو ماحدث في القصة؛ فالخداع هنا

كله سواء في ديوان "شعر إستير راب" الذي صدر عام 1963، والذي يتضمن باكورة إنتاجها الشعري، أو في كتابها الأخير "صلاة أخيرة" الذي صدر عام 1974.

20. نوريتا جوفرين. مصرايم بسفروت شل هدوروت هأحرونيم. ص 246

21. المرجع السابق. صـ246.

من يهودي ليهودي، وهو مالم يتناوله الأدب العبري –حتى عصر برنر- إلا لمامًا، وهو اتجاه نفسي وثقافي يدور في فلك فكرة "شعب الله المختار".

ولما كانت الإسكندرية –في نظر الكاتب- هى المسرح الذى تمثل فيه الشر دون وخز من ضمير، فإن صورتها في القصة تتسم بالسلبية والإجحاف، وينسحب عليها ما انسحب على اليهودي المخادع، وينبع ذلك من خلال التوافق بين الإنسان والمكان، فحين تظهر في قصص برنر شخصية شريرة، فإن المكان الذى تعيش فيه هذه الشخصية يظهر بدوره شريرًا وسيئًا وقبيحًا، والعكس إذا ما ظهرت شخصية طيبة خيرة، فإن المكان الذي تعيش فيه يكون بدوره جميلاً رائعًا. وقد ظهرت هاتان الحالتان في كل من الإسكندرية وبورسعيد، فاللقاء الأول بين المهاجرين ومصر يتسم بالسلبية، حيث يقول برنر:

"قدمنا إلى الإسكندرية مع إشراقة الصباح، وعلى الشاطيء انقض علينا عرب، يرتدون سراويل تشبه فساتين السيدات، وناشدونا –بالترغيب والترهيب- أن يكونوا لنا معاونين، ولكن ماذا أقول لك؟ فلقد سافرت بدورك مثلي وتعرف تلك السلوكيات. باختصار بينما كنا نقف مرتبكين، لا نعرف ماذا نفعل في هذا المكان الجديد المفعم بالضجيج والمتسم بالوحشية، تقدم نحونا يهودي أعرج، وحذرنا من أن نعطي أمتعتنا للعرب؛ لأنهم سيطالبوننا –بعد ذلك- بأجر أكثر مما تساويه الأمتعة كلها..... وعلى الفور امتلأ قلبي –أنا رب الأسرة- حبًا واقترابًا من هذا الشقيق، واصطحب الأعرج عربيًا من عربته، وأن ينقلنا إلى محطة السكك الحديدية. كانت شوارع الإسكندرية قذرة كسائر شوارع منطقة الشرق"[22].

فالإسكندرية –في نظره- تتسم بالوحشية والصخب والضوضاء، كما أن شوارعها قذرة ملوثة، أما أهلها من العرب المصريين فهم مستغلون، يملأ قلوبهم الجشع، ويطالبون بما لايستحقون، وهكذا تتضح –من خلال هذه الصفات السلبية- الرابطة القوية بين الشخصية والمكان في قصص برنر.

وإذا كان الشر قد ظهر فوق مسرح الإسكندرية على يد يهودي، فإن الخير قد ظهر بدوره في بورسعيد على يد يهودي من أهل المدينة، فتقاضى منهم أجرًا زهيدًا، في مقابل نقلهم وأمتعتهم إلى الباخرة التي ستبحر إلى يافا، فلم يكن مستغلاً أو مخادعًا، بل ظل حريصًا على تذليل كل عقبة تواجههم حتى أبحروا إلى فلسطين، ولذا وصفه برنر بأنه "ملاك وأسطورة". وانطلاقًا من الارتباط بين الشخصية والمكان حظيت بورسعيد –في القصة- بالصور الإيجابية حيث يقول برنر: "كانت المياه نقية شفافة، خالية من الأمواج، كما كانت الشمس ساطعة، وكانت الرحلة فوق السفينة جميلة وممتعة"[23].

---

22. برنر . يوسف حاييم : كل كتفى يوسف حاييم برنر. هوتسأت هكيبوتس همئوحاد. تل أفيف. 1960. ص 287-288.

23. برنر . يوسف حاييم : كل كتفى يوسف حاييم برنر، المرجع السابق صـ246

أما الصورة الشخصية المصرية في المدينتين فلم تتغير، حيث أخذت طابعًا سلبيًا سيئًا، فبالرغم من أن المهاجرين لم يتعاملوا معهم أثناء رحلتهم، إلا أن الكاتب وصفهم بالجشع والاستغلال. ولوكان الكاتب قد اقتصر على وصف عرب الإسكندرية بهذه الصفات السلبية لأرجعنا ذلك إلى الرابطة القوية بين المكان والشخصية كما سبق، ولكنه وصف عرب بورسعيد بالصفات نفسها بالرغم من أن بورسعيد هى المسرح الذي ظهر عليه عنصر الخير في القصة. فالعرب سيئون حتى ولو اتسم المكان نفسه بالخير والجمال، وبهذا أخرج برنر العرب من دائرة الارتباط بين الشخصية والمكان، وذكرهم بأسوأ الصفات حتى أنه قال في عرب بورسعيد: "لم يفارقنا مرشدنا، كان الطريق مليئًا بالعرب أصحاب الزوارق الذين اتهموه بتقاضي الرشوة منا، ومن ناحية أخرى اتهمهم هو أيضًا أنهم لا يعرفون الله"[24]. ثم يقول في مكان آخر: "إن العرب يسلخون الجلد من فوق العظام، وبالتأكيد سيطلبون ثلاثة فرنكات أو أربعة مقابل نقل الأشخاص والأمتعة"[25]. ولم تسلم القاهرة من سلبية الصفات التي خلع الكاتب بعضًا منها عليها فقال: "في القاهرة أثناء الانتقال من سفر إلى سفر، ومن خلال مرتفعات شاهقة ومنخفضات عميقة ليست لها نهاية، يتعلق بك الحمالون ليخدموك ويحملوا عنك حملك، ولكنك تنتفض بعيدًا عنهم، كما لو كانوا ذبابًا، وتصرخ دون توقف وبصوت أبح لا لا لا: في هذا الوقت ظهر ذلك المخلوق مرة ثانية من تحت الأرض!"[26].

على أية حال، فإن نصيب مصر من الصفات السلبية في القصة أكبر من نصيبها من الصفات الإيجابية، على اعتبار أن الكاتب لم يأت إليها طائعًا مختارًا يبغي سياحة مثلاً أو تجارة. فسطور معدودة من قصة حياته تشير إلى أنه فر من روسيا خشية أن يجند في الجيش، وأنه ذهب إلى لندن، إلا أن السلطات الروسية استطاعت أن تضيق عليه الخناق هناك أيضًا، فحاصره الفقر والضيق، فاضطر إلى الهجرة إلى فلسطين –مرورًا بألمانيا- التي واجهته فيها الكثير من الصعاب، حتى وصل إلى مصر. فالحالة النفسية للكاتب لم تكن مهيأة آنذاك للتعبير عن الجمال إذا ما لاقت جمالاً، بل ربما يمكنها أن تنظر إلى ذلك الجمال بمنظار سلبي أسود، فما بالنا لو قُدِّر لها أن تلتقي بالشر والآلام؟ لا شك أنها ستنظر إلى ذلك بمنظار أكثر سلبية واكتئابًا.

بيد أننا نأخذ على الكاتب أنه ربط بين المكان وكل من الخير والشر، ذلك أن الأمر يتعلق بالإنسان وسلوكياته بصرف النظر عن البقعة التي يعيش فيها، فرب بقعة طيبة يخرج من بين أهلها شخص منحرف، ورب بقعة قبيحة يخرج من بين أهلها شخص خير وعادل. فنزعتا الخير والشر تتعلقان بالإنسان وليس بالأرض، بل إن العلماء والفلاسفة كادوا أن يجمعوا على ضرورة أن يعيش المتناقضان في آن واحد ومكان واحد، حتى تستمر تعادلية الحياة وتوازنها، ولذا فمن الطبيعي أن يحتوى

---

24. المرجع السابق. صـ246
25. المرجع السابق. صـ246
26. المرجع السابق. صـ246

المكان على عنصري الخير والشر في آن واحد، حتى تستمر تعادلية الحياة وتوازنها، ولذا فمن الطبيعي أن يحتوى المكان على عنصري الخير والشر فى آن واحد، ولا يمكن لأحدهما أن يعيش منفردًا، فمصر –في القصة- مكان للمتناقضين(الخير والشر) على اعتبار أن من قام بالخير والشر هما من أبناء الإسكندرية وبورسعيد، ولكن هل هناك أرض تعيش في خير مطلق أو شر مطلق؟ فنفيض عليها بمعسول الصفات أو نهبط بها إلى الدرك الأسفل؟ لا نعتقد ذلك، فكيف يتأتى لنا أن نطلق حكمًا عامًا بالخير والجمال على مكان، لمجرد أن يظهر فيه إنسان خيِّر وصالح، أو بالشر والفساد لمجرد أن يظهر فيه إنسان شرير؟ ألا يمكن لهذا المكان أن يحتمل وجود الإثنين معًا؟!

ولم يقتصر تناول برنر لمصر عند هذه القصة فقط، بل تحدث عنها في فصل قصير من كتاب للرحلات تحت عنوان "من مصر" نشر عام 1915. بيد أنه يقلل – في هذه القصة- من إطلاق الصفات السلبية على مصر والمصريين. بل إنه يصور عالمية المدن المصرية الرئيسية. كما يتحدث عن تعايش مختلف الجنسيات في هذه المدن في أمن وسلام، وأنهم يحافظون على عاداتهم وتقاليدهم، ويتحدثون بلغة أوطانهم دونما ضغط من أهل البلاد عليهم، وأن الهدف من مقدم هؤلاء الناس إلى مصر هو الارتزاق والثراء، ثم العودة مرة أخرى إلى بلادهم، وقليل منهم من يقيم في مصر بصفة دائمة، فيفسح المصريون لهم الصدور، ثم يقول برنر: "لا ليس أولئك هم أصحاب مصر الحقيقيون، أولئك لن يعمروها أو يبنوها في المستقبل"[(27)]. أما أصحاب مصر في رأيه، فهم: "أناس طويلو الهامة، و أعناق قوية، على كاهلهم جبال من الآثار، وجوهم سمراء للغاية، عيونهم واسعة مفتوحة عن آخرها، ويشع منها النور والسخاء والكرم، ترتدي نساؤهم عباءات واسعة، سوداء وزرقاء فوق ثياب طويلة تتلألأ في العديد من الألوان، وتصل ضفائرهن حتى خصورهن، ويسير هؤلاء الناس فخورين متباهين بأنفسهم، يضعون فوق رؤوسهم الطرابيش والشيلان البيضاء، وتعبر أغطية رؤوسهم الشامخة عن الأبهة والفخامة، وقسمات وجوههم تشبه تلك التماثيل الموضوعة في متحف القاهرة"[(28)].

فالكتاب في هذا الفصل يصف المصريين بأنهم محبون لوطنهم، محافظون على عرفهم وتقاليدهم، شامخة هاماتهم، يكرمون وفادة من يلوذ بأرضهم، حتى أنهم احتضنوا العديد من الجنسيات لتعيش بينهم، وهى صورة تختلف عما ذكره عنهم في قصته الأولى، وربما يكون السبب في ذلك أنه كتب هذا الفصل بعدما كتب القصة الأولى بما يقترب من ست سنوات، كان قد استراح خلالها من أعباء السفر وعناء الترحال؛ فكتب بنفس هادئة وديعة، فخرج الفصل على ما هو عليه، مما يؤكد أن الحالة النفسية لها أثر كبير في الوصف والتصوير، فالقيم الشعورية والقيم التعبيرية كلتاهما وحدة لا انفصام لها في العمل الأدبي، وليست الصورة التعبيرية إلا ثمرة

---

27. برنر . يوسف حاييم : المرجع السابق. صـ246
28. برنر . يوسف حاييم : المرجع السابق، صـ246.

للانفعال بالتجربة الشعورية، وليست القيمة الشعورية إلا ما استطاعت الألفاظ أن تصوره، وأن تنقله إلى مشاعر الآخرين، فلكل عالم طابعه وسماته، ولكن تختلف آفاق هذا العالم سعة وضيقًا وارتفاعًا وانخفاضًا وفقًا لشعور الأديب وأدواته التعبيرية.

أما دبورا بارون[29] فقد طردها الأتراك إلى مصر، كما طردوا معها زوجها يوسف أهارونوفيتش[30] وابنتهما تسافونا. وكان ذلك إبان الحرب العالمية الأولى، فجاءوا إلى مصر محملين بالكثير من الآلام النفسية التى عبروا عنها في كتاباتهم ومكتباتهم التي أرسلوها إلى أصدقائهم[31] والتي تظهر مصر فيها كـ"منفى" ولكنه "منفى" جميل، ينطوى على وسائل الأمن والطمأنينة.

فقد كتبت دبورا بارون قصة بعنوان "المنفيون"، تناولت فيها فترة وجودها في مصر وخاصة فى الاسكندرية في الفترة من 1915 وحتى 1919، وقد صورت مصر في قصتها تلك على أنها "منفى جميل" تتوفر فيه كل أسباب الراحة والرفاهية والأمن والسلام، ولكنها برغم ذلك كله فهى تشكل بالنسبة لها "منفى" إجباريًا، لأنها لم تأت إليها طائعة مختارة لتستمع بها وبجمالها وطقسها وحضارتها، وإنما جاءت من فلسطين طريدة، فلم تكن حالتها النفسية في وضع يسمح لها بالاستمتاع بما ترى أو تشعر به. ورغم كل ذلك فإن قصة "المنفيون" تعتبر أكثر قصص دبورا بارون تعبيرًا عن السعادة ورسمًا للابتسامة، فإذا كانت الموضوعات التي تناولتها دبورا بارون في قصصها يغلفها طابع الحزن والمأساة والمصادفات المفجعة، إلا أن الابتسامة عادت إلى وجهها –بعد فترة طويلة من الأحزان- في قصة "المنفيون"[32] ذلك أن الجو العام الذي كتبت فيه هذه القصة يختلف تمامًا عن الجو الذي كانت تعيش فيه قبل ذلك، والذي كتبت فيه سائر قصصها الأخرى[33].

ولا شك أن إدخال دبورا بارون الطبيعة إلى عالمها القصصي، مكنها من صقل شخصياتها وتبيان أنفسهم، فتغيرات الطبيعة هي التي تكون مزاج الشخصيات، وليس هناك من ينكر بأن هناك مشاركة داخلية ونفسية قائمة بين الإنسان والطبيعة.

ولو قرأنا القصة مليًا لأدركنا أن أحداثها وقعت في الحرب العالمية الأولى، وهى الحرب التي أصابت مراكز اليهود في شرق أوروبا بصورة عنيفة[34] مما اضطر اليهود للبحث عن ملاذ يأويهم وملجأ يكفيهم مئونة الخوف والذعر الذي سيطر آنذاك

---

29. أنظر هامش رقم 9.

30. أنظر هامش رقم 8

31. هناك رسائل من أهارونوفيتش إلى صديقه يهودا ليف ركلس، وإلى يوسف شفرينتسك وإلى يوسف حاييم برنر، وقد نشرها الأخير ضمن كتاباته، كما أن هناك كتبًا للسيرة كتبها بعض يهود الإسكندرية، تناولوا فيها علاقاتهم مع دبورا بارون وأهارونوفينتش منها –على سبيل المثال- ما كتبه دافيد يودلفيتس تحت عنوان "المنفيون الإسرائيليون في مصر".

32. عرايدي، نعيم: نافذة على الأدب العبري الحديث. دار المشرق، فلسطين المحتلة، 1984، صـ39

33. لاحوفر : ريشونيم فأحرونيم. مسوت أومأريم على سوفريم. دفير. تل أبيب 1976. صـ247

34. نرويت جوفرين. صـ247.

على وجدانهم، وكانت مصر أحد الحصون التى أوى إليها هؤلاء اليهود من سائر البلدان، ولذا نجد أن دبورا بارون التقت في الإسكندرية بالعديد من اليهود من الجنسيات المختلفة، جاءوا إلى مصر فرارًا من أهوال الحروب، ولذا صورت مصر في القصة بأنها "حصن حين غابت الحصون".

ولقد تناولت دبورا بارون مصر ومدنها وحضارتها وتقاليدها وإكرام شعبها للضيف، فمصر ملاذ لكل مضطهد أو مظلوم، مصر هى "بيت الأيتام"، "ومأوى من لا مأوى له". فموريس ليفي –تاجر قطن- رجل مصري استقبلهم مرحبًا حين وفدوا إلى مصر، وحين طلبوا منه أن يكون مرشدًا لهم في الإقامة والتجوال داخل مصر ومدنها، لم يتردد أو يرفض، بالرغم من أعماله التجارية الكثيرة التي تستهلك معظم أوقاته، ولذا قالت عنه دبورا: "كان لطيفًا كما كان في الفندق، بشوش الوجه، حين وصلوا إلى القاهرة وطلبوا منه أن يكون مرشدًا لهم –وهو ذو أنشطة واسعة- لبى لهم مطلبهم، وجاء إليهم في المساء في مكان إقامتهم"[35].

فشخصية الإنسان المصرى في قصة "المنفيون" لدبورا بارون تختلف كثيرًا عما هى عليه في قصة "أحزان" ليوسف حاييم برنر، فهى عند دبورا طيبة، وديعة، متسامحة، مسالمة كريمة، محبة لوطنها مرتبطة بأرضها ارتباطًا شديدًا. وفى محور حديثها عن معالم مصر وصور الطبيعة فيها تقول: "لقد تجول بهم في شوارع الإسماعيلية الغنية بالخضرة، ثم جاء بهم إلى حديقة العجائب في الأزبكية، ثم احتسوا القهوة عند كشك قديم تظهر على حوائطه صور أوزوريس وأبناء أسرته، بينما وضعت مجموعة من المومياوات الصامتة عند مدخل الكشك، وبعد ذلك وحين أرخى الليل سدوله، أقلعوا جميعًا فوق ظهر مطية ذاهبين عبر صفوف من الحدائق الغنية بالأسرار إلى الأرض الرملية في الجيزة.... ثم أتى بهم إلى هيليوبولس الضاربة في أعماق التاريخ، وإلى حلوان بطبيعتها البهية، ثم تجول معهم وقتًا طويلاً داخل أزقة أسواق الموسكي، القديم منها والجديد، ثم صعدوا بعد ذلك إلى هضبة القلعة، وهنا رأوا ساعة فيليب، ومسجد محمد علي الذي تطل مآذنه من عليائها –ومعها مجموعة هائلة من المآذن الأخرى – تطل جميعها على المدينة وعلى وادي النيل والصحراء الصفراء التي تلوح من بعيد، ثم هبطوا بعد ذلك إلى الظلمات إلى عمق الأعماق في بئر يوسف"[36].

فهى تذكر جمال الإسماعيلية التي تكسوها الخضرة، وكذا القاهرة بحدائقها الغناء وطبيعتها الرائعة في حلوان، وأثارها التي تعبر عن ماض مجيد شهدت له الدنيا، سواء الآثار الفرعونية المتمثلة في المومياوات، أو تمثال أوزوريس، أو في الآثار الإسلامية المتمثلة في قلعة محمد علي، وما يعلوها ويحيط بها من مآذن تنظر في شموخ إلى الوادي الخصيب في أسفلها. والإسكندرية نفسها توصف بأنها "نور

---

35. دبورا بارون : هجوليم. سفريت لاعام. هوتسأت. عم عوفيد. تل أبيب. 1970. صـ41.

36. دبورا بارون : هجوليم. ص 41.

فاتن"[37] وأنها مدينة "بشوشة الوجه"[38] أمام المنفيين، دمثة الخلق عند مقدم الضيوف[39] وأنها "المنفى المريح"[40] و "رصعت حدائقها بالأصداف التي أخذت شكل الضفائر والأزهار ومياهها تبرق تحت الشمس"[41].

وقد أشارت القصة إلى تعايش مختلف الأديان والجنسيات في الأسكندرية في جو من السلام والأمان، فهناك أسرة ألمانية تعرفت عليها بطلة القصة[42]. وصاحب البيت الذي تقيم فيه يوناني الجنسية [43]. والطبيب الذي يتولى علاجها إيطالي[44]. والطبيب المرافق له فرنسي، وغير ذلك من الجنسيات والطوائف التي وفدت إلى الإسكندرية، بحثًا عن الأمن والثراء والاستقرار، وهو ما عبر الجو العام للقصة عنه.

ولو ألقينا نظرة عامة على القصة، لأدركنا أن الكاتبة تؤكد على تعادلية الحياة، وهو ما زخرت به كتاباتها، فالاضطهاد في منطقة يقابله ويتعادل معه الأمن والسلام في منطقة أخرى (شرق أوروبا ومصر)، حتى في الوصف والتصوير نجدها تلتزم بذلك المبدأ، فحلوان الذي يلفها الأخضرار، يقابلها ويتعادل معها هضبة الأهرام ورمالها الصفراء، ومآذن القلعة تطل من عليائها على واد سحيق فيه بئر يوسف، والأهرام تطل في شموخ من فوق هضبتها على المروج المنتشرة أسفلها، إلى غير ذلك من الصور التي تبرز إيمان الكاتبة بالتعادلية بين المتناقضات.

وكاتبة أخرى هى إستيراب التى تعتبر الشاعرة الإسرائيلية الأولى من يهود الصابرا[45] حيث ولدت في بتاح تكفا عام 1899، وعاشت في القاهرة خمس سنوات من 1920 حتى 1925 مع زوجها التاجر إسحق جارين. سجلت قصة وجودها في مصر شعرًا ونثرًا، أما الشعر فقد كان غفلاً من العنوان، ولكنه يدور حول الطبيعة الجميلة التي تتسم بها ضاحية حلوان، حيث كانت آنذاك قبلة لمن أراد استمتاعًا بالطبيعة، ناهيك عن أن استير راب صنفت في الأدب العبري باعتبارها من شعراء الطبيعة والوصف[46] حيث أفاضت في وصفها بشكل عام، وانبهرت كثيرًا بطبيعة بلاد الشرق، وخاصة مصر وفلسطين، ولذا جعلتها ركنًا أساسيًا لا غنى عنه في أشعارها العاطفية القصيرة، بل جعلت تلك الطبيعة الخلابة رمزًا للحب والتهاب العاطفة، فهى تتغنى بالطبيعة المصرية في إحدى قصائدها قائلة:

---

37. المرجع السابق. صـ247
38. المرجع السابق. صـ247
39. المرجع السابق. صـ247
40المرجع السابق. صـ247
41. المرجع السابق. صـ247
42. المرجع السابق. صـ248
43. المرجع السابق. صـ248
44. المرجع السابق. صـ248
45. دبورا بارون : هجوليم. صـ248
46. نرويت جوفرين صـ248

يا لجمال النخيل
حين يتعلق به السعف،
أو حين يتناثر في هوادة
عند الجذوع الثابتة في شموخ،
كورد عملاقة،
تقف على سوق رقيقة،
وتطل من العلياء الفيافي،
ومروج تظهر وكأنها أحلام،
تضيع وسط الأنوار،
كالحلم بمنظر الطبيعة عند تائهي الصحراء،
ويمر النيل بين النخيل، كنسيج مزروع
أو كفولاذ مسبوك
فيبتلع الأرض شيئًا فشيئًا،
ومن فوقه سماء،
كعين كيلوباترة،
ويصبح لونهاأخضر قاتمًا عند المساء[47].

فالشاعرة تطل علينا بصورة فنية كلية، يشكل النخيل عمادًا رئيسيًا فيها، فتشبه "السعف" بالزهور، و "الفيافي" بالأحلام، و "النيل" بالنسيج أو الفولاذ المسبوك، وتربط بين هذا كله وبين ذكريات تاريخية مثل "التائهين في الصحراء" و "كيلوباترة".

وأما القصتان فهما "مربى الورد" و "تحت شجرة الكافور في حلوان". وإذا ما قرأناهما أدركنا أن الكاتبة اهتمت فيهما بوصف الطبيعة وبهائها أكثر من هاتين من اهتماماتها بالأركان الأساسية للقصة من أحداث وشخوص وحبكة أو غير ذلك، وكأنها تكتب هاتين القصتين؛ لتصف جمال الطبيعة المصرية فقط، ففي قصة "مربى الورد" شغل وصف الطبيعة أكثر من ثلثيها، حيث تثني في مقدمتها على الطبيعة المصرية قائلة: "يرسل الحمام هديره وسط أشجار الفلفل المتشابكة، وتشرق الشمس، فتجعل البساتين المنبسطة ذهبية اللون، ويعانق النخيل السماء بجذوعه الثابتة. وتفوح الحدائق المنبسطة أمام المنازل بشذاها ليلاً وقبل أن يبزغ النهار، ولم يزل الياسمين ناضرًا، يتسلق على وجه الحائط فاتحًا عينيه الواسعتين، وفئ ندى يختفى بين سيقان

47. استير راب :جن شيحارف. مفحار سبوريم. شفعا شيريم سفريات ترمل1983. ص 193-196.

الزهور البرية وأشجار المانجو" [48]... ثم تصف منظر النيل، وهو يخترق الصحراء بينما مجموعات من الصيادين تنهل من خيره.. فتقول: "كانت سماء الصحراء صافية وممتدة إلى غير نهاية، وتزحف قافلة من النساء والرجال والحمير عبر ذلك الطريق القادم من النيل، تزحف على وجه البساط الرملي الأصفر الذي يغطي الصحراء، كان الجو نقيًا صافيًا، وتبدو حركة القافلة بكل تفاصيلها كسرب من النمل.."[49].

تنتقل الكاتبة إلى موضوع القصة، وهو وصف يوم إعداد مربى الورد، وهو – كما قالت- يوم لذيذ، وهو وصف يتكرر كثيرًا عند العديد من أدباء العبرية الذين عاشوا في مصر فترة معينة من الزمن. ففي هذا اليوم استيقظت الفتاة "كلمنتين" مبكرًا لتشارك في إعداد مربى الورد، وعادة ما كانت رائحة العبير تنتشر في أرجاء المنزل طيلة ذلك اليوم، إلا أن رائحة الفتاة"كلمنتين" كانت تفوقها في التأثير على أنوف الرجال والفتيات. فكانت تثير غرائزهم، فحين كانت تهبط درج السلم إلى الدور الأرضي لتحضر بعض القوارير الزجاجية لتملأها بالمربى، نزل خلفها الفتى "محمد" ،الذي تشبهه الكاتبة بإله مصري قديم يقبع في متحف الآثار بالقاهرة، فلم يستطع أن يكبح غريزته، حيث اعترض طريقها، وحاول أن يمد يده نحوها. ولما كانت الفتاة مخطوبة لفرد آخر لا ترغب فيه، ولا ترى فيه فتى أحلامها، بل تنظر إليه على أنه مصدر بؤسها وتعاستها فقد استجابت للعلاقة بينها وبين الفتى، وحرصت على أن تكون العلاقة سرية، إلا أن الكاتبة قطعت سير الأحداث، وانتقلت ثانية إلى وصف الطبيعة، فتواصل وصفها للنيل والخضرة والنخيل، وكأن الطبيعة –كما سبق القول- ليست سوى رمز للحب والهوى بين بطل القصة وبطلتها.

وفى قصة "تحت شجرة الكافور في حلوان" تشير الكاتبة إلى أن مصر هى حصن الأمان ومصد الطمأنينة لمن يفتقد الأمان والاطمئنان، فأحداث القصة تدور في الفترة ما بين عامى 1920- 1925، وهى الفترة التى أعقبت ثورة 1919 التى قادها سعد زغلول، وبالرغم من هدير المظاهرات، وزئير الجماهير التي ملأت شوارع مصر كلها، والتى أفقدت نظام الحكم آنذاك اتزانه، وأضعفت هيمنته على زمام الأمور، وأشاعت في البلاد جوًا من عدم الاستقرار، إلا أنه لم يلحق أذى لأى أجنبي على أرض مصر، بل عاش الأجانب حياتهم اليومية العادية، دون أن يجبروا على فعل شيء، أو يحدث لهم ما يعكر صفوهم، وتشهد الكاتبة على ذلك حيث قالت: "كانت هذه هى فترة "سعد زغلول" حيث كان الشباب الثائر يقوم بإشعال النيران في عربات الترام في الشوارع، وهم يهتفون "يحيا الوطن..... عشت مهاجرة في هذا البلد، ولم تكن قضاياهم هى قضاياي"[50]. وفى مكان آخر تقول: "تجولت دون خوف بين رعاة الماعز، تعلمت اللهجة الخاصة بهم، ولم يندهشوا حين رأوا سيدة أوروبية

48. استير راب: جن شيحا رف، صـ187.
49. المرجع السابق، ص 187.
50. استير راب : تحت هأكليبوتوس بحلوان. ترمل 1983. ص193.

تسير بمفردها، فقد كانت سائحات إنجليزيات كثيرات يفعلن ذلك..."[51].

فالكاتبة هنا تشير إلى حرص المصريين على عدم إحداث ما يعكر صفو الأجانب المقيمين بينهم ضيوفًا، مما يجعل هؤلاء آمنين على أنفسهم من كل خوف. وبأسلوبها القصصي وحبها لوصف الطبيعة، أفاضت استير راب في وصف طبيعة القاهرة وأحيائها، بل أفرطت في الوصف، حتى بدأ اهتمامها بإبراز أحداث القصة وأركانها هزيلاً إذا ما قورن باهتمامها بإبراز الوصف والتصوير، بل إننا نكاد نقول إن الكاتبة كانت تعمد إلى تقسيم أحداث القصة على أماكن مختلفة؛ حتى تتمكن من تصوير هذا المكان، فوصفت منطقة الأزبكية "وحديقتها المدهشة ونخيلها الشاهق الذي يعانق السماء"، كم وصفت منطقة وسط المدينة "ونظافتها وعبير زهورها والنشاط التجاري فيها". أما منطقة حلوان فهى مسرح القصة وهي الحى الذى كانت تقيم فيه الكاتبة، وليس بمستغرب على إستير راب –أديبة الطبيعة- أن تستأثر طبيعة حلوان بلبها، فتسهب في الوصف، وتقول: "عثرنا على بيت عند حافة الصحراء، بيت كبير منعزل تظلله شجرة كافور عملاقة، وتحيط به الزهور. ولم نر أية أشجار سوى أشجار النخيل وأشجار المانجو، وقد استأثرت شجرة الكافور بقلبى فاستأجرنا البيت... الآثار، النباتات الفريدة، ضفاف النيل كانت قريبة للغاية، كانت المسافة بيننا وبين النيل عشر لحظات... كانت ضفتاه مفروشتين بالنخيل العملاق ذي الجذوع الملساء البيضاء كالجص، ضفتان تنحدران نحو الماء، وفوق مياه الشاطيء ترسو عوامات تحمل أكواخًا خشبية صغيرة تستخدم كمصيف لأثرياء المدينة الذين يأتون ليتنفسوا هواءًا باردًا.. كان النيل العريق العظيم جذابًا للغاية"[52].

أما يهودا عميحاي، الذي وفد إلى مصر مجندًا في الجيش الانجليزي أثناء الحرب الثانية ومكث فيها لمدة عامين، فقد عرضنا في الفصل السابق قصته "سد أسوان" من جانبها الفرعوني، وما تحتويه من أفكار في الموت والخلود وعلاقتهما بالفكر الفرعوني القديم، وها نحن نتناول القصة نفسها من حيث تصويرها للطبيعة المصرية والإنسان المصري. فعلى أثر خروج عميحاي ورفاقه من خنادقهم التي حفروها في قلب الصحراء، مستهلين رحلتهم لزيارة معالم مصر القديمة والحديثة، شاهدوا النيل، فأثار بسحره عميحاي الأديب فطفق يصفه قائلًا: "استمرت رحلتنا على امتداد النيل. طوبى للبلد الذي يملك محورًا مركزيًا مثل ذاك النهر، ذلك أن أهله سيتعرفون فورًا على اتجاهات السماء، ولا يخطئون. أما في بلدنا فإن الجبال والوديان تشطر الأرض. وكل فرد يشير إلى اتجاه آخر، ويحتاج أهلة إلى بوصلة أو نجوم لكي يحددوا الاتجاه"[53].

وكما سبق لنا القول في -الفصل السابق- فإن عميحاي كان يعمل في الطبوغرافيا العسكرية، وهو تخصص يدور حول الملاحة وتحديد الاتجاهات نهارًا وليلاً عن

51. المرجع السابق. ص 192-193.
52. عميحاى – يهودا: هسيخر بآسوان. هارواح هنورآه هازوت. هوتسأت شوكيد. 1973. ص228.
53. المرجع السابق، ص 228.

طريق البوصلة والنجوم وغير ذلك من الوسائل ولذا نجده –في تصويره السابق للنيل- متأثرًا بهذا العمل، فيشبه النيل بأنه خير هادٍ لكل من يضل الطريق، فهو يحدد الاتجاهات دونما حاجة إلى بوصلة أو نجوم، أمًا فلسطين فإن الجبال والوديان لا تهدى التائهين إلى اتجاهاتهم الصحيحة؛ لأنها تقسم الأرض وتشطرها، فيختلط الأمر بين الشمال أو الجنوب أو الشرق والغرب، مما يصعب معه تكملة المسير دون مرشد، ثم يدلل على ذلك ويقول:"ذات مرة كنت في انجلترا، في مدينة صغيرة، وكان من الصعب عليَّ أن أعثر على نهر التايمز، أما في مصر فلا حاجة للسؤال، فإذا كنتم لا ترون النهر، فأنتم تستمعون إليه، ففي كل الأحوال ستنجذبون نحوه"[54].

وحين وصل إلى أسوان، وشاهد السد وما يحتجزه خلفه من مياه يتحكم في تدفقها متى وكيفما يشاء، شبهه بالأديب الذي يختزن الأفكار بداخله ليكتبها في الوقت المناسب، وبالقدر الذي يريده، فيقول: "وأنا من تلقاء نفسي لم أكن أستطيع المساعدة، بل كنت أستطيع المساعدة، بل كنت أستطيع أن أحكي كلمات وأشياء، أو أن أحفظها بداخلي، كي أقولها بعد سنوات طويلة بصوت عال أو مكتوبة. وأيضًا السد الكبير في أسوان، يدخر مياه النهر ويحفظها قبل أن يخرجها بإحكام"[55].

وهناك العديد من الأمثلة التي يربط فيها عميحاي بدقة بين الظواهر المادية الطبيعية والظواهر الإنسانية المجردة في إطار واحد، فقد شبه الأديب حين يحتجز أفكاره بالسد ... حين يحتجز مياهه، كما شبه النيل –وهو ظاهرة طبيعية- بالبوصلة التى اخترعها الإنسان كي تحدد له الاتجاه، ناهيك عن العديد من الصور والتشبيهات التي سار فيها على النهج ذاته في بقية أجزاء القصة.

ونظرًا لسيطرة فكرة الموت على أحاسيس عميحاي –كما سبق أن ذكرنا- وبالرغم من أنه كان يشارك آنذاك في الحرب العالمية الثانية. إلا أنه يمقت الحرب ويعدد مساوئها على الفرد والمجتمع[56] فقد كان يبغي أن يموت على سريره[57] وكان ينظر إلى الحرب نظرة مختلفة عن أقرانه، فيقول في قصته: "دخل جنود مصريون وانكمشوا في الركن خائفين. وبالغم من أن الأرض أرضهم والقطار قطارهم، كانوا ينتعلون أحذية نصفية غليظة، ويضعون فوق رؤوسهم أغطية مستديرة لونها كاكي، وكنا نعلم أننا سنحارب هؤلاء في المستقبل، وربما كنت شخصيًا أنظر إليهم نظرة أخرى... ولكن كنت أسلك معهم سلوكي الطبيعي آنذاك"[58].

فرغم علمه أنه سيحارب هؤلاء الجنود المصريين بعد فترة من الزمن، إلا أن تعامله معهم كان تعاملاً حسنًا، ويبدو أن روحه من الداخل كانت ترفض كل أعمال القتل والعنف والصراع، وربما أثر عليه ذلك كله، فانضم –في مرحلة لاحقة- إلى جماعة السلام الآن التى تنادي بتحقيق السلام مع العرب حقنًا للدماء.

---

54. عميحاى: هسيخر بآسوان ، ص 236.
55. كافيم لشيرات عميحاى. عل همشمار هأفق لسفروت 1969. ص9
56. عميحاى . يهودا: شيريم 1948 -1962. شوكيد. يروشالايم. ص 9.
57. عميحاى : هسيخر بآسوان. ص227.
58. عميحاى : هسيخر بآسوان. ص227.

بيد أن عميحاي لم يذكر لنا مما أو ممن كان "يخاف" الجنود المصريون وهو ما لم يرد في تاريخ العسكرية المصرية في أي عصر من العصور؟ وربما اختلط الأمر عليه فيما إذا كان هؤلاء يخافون أم يتقززون، يهابون أم يغضبون، يرتجفون أم يملأهم الحزن والأسى عما يحل بوطنهم آنذاك؟! وحسبنا في ذلك صفحات التاريخ التي سجلت وما زالت تسجل العديد من ملاحم التضحية والفداء التي تصنعها العسكرية المصرية. بل إن هناك العديد –من غير المصريين- ارتبطوا بمصر فكريًا ووجدانيًا فآثروها على أرواحهم حين تعرضت للخطر، فاستشهدوا في سبيلها مثلما فعل الظاهر بيبرس أو طومان باى أوغيرهما؟ فما بالنا بأهلها الذين ارتبطوا بها قلبًا وقالبًا؟

*****

ولم يمر على توقيع اتفاق السلام بين مصر وإسرائيل سوى فترة قصيرة من الزمن، وهي فترة لا تسمح بانعكاس هذا الاتفاق على مجالات الإبداع الأدبي إلا لمامًا، ذلك أن الحاجز النفسي الذي يهيمن على وجدان أدباء العبرية لم يتسير لهم –حتى الآن- اجتيازه، خاصة وأنه عاش داخلهم، يوجه أقلامهم وأفكارهم مئات، بل آلاف السنين، فكيف يتأتى لسنوات –لم تتجاوز في عددها أصابع اليد الواحدة إلا قليلاً- أن تمحو ما نقشه ذلك الدهر الطويل في قلوبهم من حقد وكراهية.

ومع ذلك فقد كتبت أقل القليل من القصص، دارت كلها تقريبًا حول "السلام" كمبدأ إنساني، يجب على البشرية أن تسمو به، وتجعله منهاجًا للتعامل بين أفرادها، ولنقتطف إحدى هذه القصص لندلل على ما نقول.

القصة كتبها إسحق بن نبر[59] عام 1979 ضمن المجموعة القصصية التى تحمل عنوان "أرض بعيدة". أما القصة ذاتها فعنوانها "دافيد أوجست. القاهرة. فبراير"، وتجرى أحداثها في القاهرة في السابع من فبراير عام 1978، وتدور حول اثنين من الصحفيين المرافقين للوفد الإسرائيلي في مباحثات السلام، نشأت بين هذين الصحفيين خصومة شديدة ونزاع دائم، وصل للدرجة التى كان أحدهما يحيك للآخر خطة انتقام تؤدي إلى تحطيمه نفسيًا، فـ"دافيد أوجست" يمقت زميله "هاردوف" بشدة؛ ربما لأنه أكثر منه نجاحًا فى عمله الصحفي، حيث يستطيع –بملكاته الشخصية- الاتصال بكبار الشخصيات السياسية والاجتماعية، والحصول منهم على سبق صحفى من خلال معلومات وفيرة ودقيقة ومفاجئة مما يكسبه بريقًا يحسده عليه

---

59. اسحق بن نير، كاتب إسرائيلي ولد في قرية يهوشع، نشر قصته الأولى "المشرد العجوز" عام 1954 بتوقيع مستعار "ران نوف" ثم بدأ يوقع باسمه الحقيقي على قصصه عام 1959 حيث نشر قصته "البرج" وفي عام 1964 نش قصة "الإسكندر الأكبر" نشرت قصصه في صحيفة هآرتس، كيشت، سيمان" وصدرت له مجموعات قصصية عديدة منها "غروب ريفي" وهى تحتوى على ثماني قصص كتبت بعد حرب 1967، ثم أعقبها بمجموعة أخرى تحت عنوان "بعد المطر". وفي عام 1981 نشر مجموعة "أرض بعيدة" وهى تحتوى على ست قصص، تدور جميعها حول معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، وما يترتب عليها من نتائج، وقد تناولنا إحداها في هذا الكتاب. صدرت له مجموعة من كتب الأطفال، وقد ترجمت قصصه وكتبه إلى العديد من اللغات، وصورت سينمائيًا في إسرائيل.

زملاؤه.

ثم تسرع أحداث القصة، فنجد أن "هاردوف كان قد استطاع أن يسلب من دافيت أوجست" زوجته في الماضي، ولكنها ماتت بعد ذلك بقليل على أثر إصابتها بمرض السرطان، ثم يتضح أيضًا أن "هاردوف" كان مصابًا –منذ فترة طويلة- بالمرض نفسه، وأنه التقى بزوجة دافيد أوجست" عند الطبيب الذي كان يعالج كلا منهما، فلقاؤهما كان لقاء شخصين نهايتهما محتومة، وهما يعرفان ذلك، فربما كان هذا اللقاء عزاء ومواساة، وهو ما يجعل لقاءهما يختلف عن كل لقاء. ولم يكن "دافيد أوجست" على دراية بهذه التفاصيل، بل كان مشغولاً في مطاردة "هاردوف" في شوارع القاهرة وحوانيتها، رغبة في الانتقام. وفي إحدى المطارات فوجيء بصورة "صفريرا" زوجته التى ماتت، معلقة في أحد حوانيت خان الخليلي، كما فوجيء بـ"هاردوف" وهو يتقدم لشرائها، ويضطرم بينهما الصراع حول الصورة كما اضطرم قبل ذلك على صاحبة الصورة نفسها، ويذهب كل منهما إلى الحانوت خلسة عساه أن يفوز باقتناء الصورة، وفى إحدى هذه المرات نظر "دافيد أوجست" بدقة إلى الصورة، فتبين أن الأمر قد اختلط عليه، وأن الصورة ليست صورة زوجته السابقة "صفريرا" ولكنها صورة لامرأة غريبة ذات ملامح فظة وقسمات رتيبة، فأخذته الدهشة، وانتابه الندم، على ما كان يضمر من شر لزميله، وهكذا بدأت الخصومة بينهما يقل أوراها إلى أن انتهت تمامًا عند سرير "هاردوف" في فندق شيراتون، حيث سقط الأخير فريسة للمرض العضال، فاستدعوا له طبيبين أحدهما مصري، والثاني إسرائيلي، حيث ينقلانه سويًا إلى المستشفى، ويكتشفان بعدنقله أنه ترك وصية يبغي تحقيقها بعد موته، ويكتشف "ديفيد أوجست" من خلالها أن هاردوف كان مريضًا بالمرض نفسه الذى قضى على زوجته من قبل، وأنهما التقيا عند الطبيب المعالج فيشتد ألمه، ويزداد ندمه، ويزول الصراع، وتطوى الكراهية بينهما صفحاتها.

ويتضح من العرض السابق أن الكاتب كان متأثرًا –أثناء وجوده في القاهرة لمتابعة مفاوضات السلام- بالجو العام الذي يسيطر على المفاوضات، فكتب هذه القصة ليرمز بها إلى مصر وإسرائيل، وأنهما التقيا بعد نزاع طويل وخصومة شديدة، مثلما التقى "ديفيد أوجست" و "هاردوف".

وقد وظف الكاتب كثيرًا من الأحداث الرئيسية والثانوية للقصة، للحديث عن مواقف المصريين إزاء خطوات السلام، حيث تتراوح بين الشك واليقين، والرفض والقبول، بل إن موقف الكاتب نفسه يتأسس على هذه المتغيرات ذاتها،فذاك عامل مصري يبدي ترحيبه بإحلال السلام بين البلدين، فيتحدث مع الصحفيين الإسرائيليين بعبرية مختلطة بالعربية على سبيل الترحيب والتكريم، لدرجة أنه وصفهم بـ"الأصدقاء" فيقول: "سلام، سلام عليكم يا أصدقاءنا الإسرائيليين، تفضلوا، إجلسوا وتناولو طعامكم، فيوجد سلام الآن، لست غاضبًا، وليست هناك حروب أيها

الأصدقاء، هل تريدون شايًا، هل تريدون قهوة، أو عصير ليمون؟"[60]. وفي متحف القاهرة تعرب عاملة النظافة لمصرية عن أمنياتها في تحقيق السلام بين الجانبين، فتدعو الله أن :"يحفظ رئيسنا ورئيسكم وكل الأمهات الإسرائيليات"[61].

بينما نجد على الجانب الآخر شكوكًا ورفضًا للعملية السلمية من جذورها، فالحاجز النفسي بين الجانبين ما يزال شاهقًا، فذاك بائع مصرى يتوقع حروبًا قادمة ودائمة، فيعلن تحديه للصحفيين الإسرائيليين قائلاً: "في الحرب القادمة أو التي بعدها سوف نهزمكم ونسحقكم"[62].

وتلك فتاة مصرية تستغيث بالمارة لإنقاذها من مأزق، فيسرع إليها "ديفيد أوجست" وحين يتبين لها أنه إسرائيلى تبصق في وجهه رافضة مساعدته.. تبصق في وجهه بصقة شديدة ضخمة"[63].

وإذا نظرنا إلى القصة مليًا، نجد أن الكاتب نفسه قد تراوح بين التأييد والشك والرفض من وقت لآخر، ولذا انعكست أوصافه لمصر وشعبها بين الإيجاب والسلب طبقًا لطبيهة الموقف المطروح، فردًا على رفض بعض المصريين وشكوكهم إزاء العملية السلمية، نجد شكوكًا واضحة عند الكاتب نفسه حيث يقول: "إن المناخ السائد بين الدولتين ما يزال صعبًا وملبدًا بالغيوم"[64]. بل إن الكاتب يشكك في نوايا السادات نفسه إزاء السلام فيقول: "إنهم يستطيعون أن يلعبوا معنا ألف لعبة على سبيل التمويه والتعمية، ولازلنا نحن ألعوبة بين يدي السادات، إنه يهودي بالغ الحيلة، هذا السادات"[65].

و "ديفيد أوجوست" يشك في مشاعر رجل الشرطة المصري المكلف بحراسته، ويشير إلى أنه يفعل ذلك على غير رغبته "ربما لا يطيقنا نحن الإسرائيليين، إلا أنه لا يستطيع –بحكم عمله- أن يفصح عن ذلك"[66].

والكاتب لا يعرف توجهًا لأهل القاهرة في عملية السلام فيقول: "إنه يتجول في شوارع مدينة في شوارع مدينة غريبة، لا يعرف ما إذا كانت قد تخلصت من عدائها أم لا"[67].

وحين يستشعر الكاتب أحاسيس السلام بين بعض المصريين، نجده يصف القاهرة

---

60. يتسحاق بن نير : دافيد أوجست. كاهير. ففروآر. كتير. يروشالايم. 1981. ص 104.
61. المرجع السابق. ص 136.
62. المرجع السابق. ص 135.
63. يتسحاق بن نير : دافيد أوجست. ص 128.
64المرجع السابق. ص 120.
65. المرجع السابق. ص 132.
66. المرجع السابق. ص 122.
67. المرجع السابق. ص 114.

بأوصاف إيجابية، فيقول: "لقد علقت مصابيح صغيرة فوق النيل، وهدأ الغبار، وبدا ذاك الجمال الفريد لهذه المدينة العتيقة البائسة العظيمة الصابرة، بدا هذا الجمال يتجلى ويتسامى مع مقدم الليل وتبخرت آلامها، واندملت جراحها بأعجوبة، وقليل من الرياح يلطف من حرارة النهار"[68]. ثم يواصل الكاتب في مكان آخر وصفه لمساء القاهرة قائلًا: "مساء القاهرة –التي كانت مدينة العدو فيما مضى- تغوص في غسق يبرد من آلام السنين، الآن يهدأ الضجيج، ويهوي الغبار، وتتصاعد الأنوار في كل مكان، وفى غرب القاهرة يتلألأ نور برج القاهرة المرتفع"[69].

ويشير الكاتب بوضوح إلى الأمن الذي يتمتع به زوار القاهرة من الأجانب، وحرص الدولة على توفير الرعاية الكاملة لهم، ويؤكد على أن الشعب المصري شعب مسالم وليس مستسلمًا، وأن حجم الجريمة التي ترتكب في القاهرة يتضاءل أمام الجرائم التي ترتكب فى أماكن أخرى كثيرة في العالم، فيقول: " الوجه البشوش لأهل هذا المكان (القاهرة) صبرهم وطول أناتهم، أنت تعرف –قال له أهاروني بشىء من الاستغراب في الفندق –إن المرأة تستطيع أن تسير هنا بمفردها ليلاً، فلا يمسها أحد، وهذا أمر مدهش، فليس في القاهرة تقريبًا أعمال إجرامية أو عنف."[70]

وفي مكان آخر يقول واصفًا أحد الإسرائيليين يسير في شوارع القاهرة: "إنه يتجول في شوارع مدينة غريبة، ورغم أن جنسيته معروفة للجميع، إلا أنه يسير غير خائف، ولم يحدث له مكروه"[71].

وها هى عادا أهاروني ابنة الإسكندرية لا تترك فرصة سانحة لزيارة مصر أو الكتابة عنها مستلهمة ذكرياتها العطرة في وطنها الأول إلا واغتنمتها، وقد واتتها الفرصة على إثر توقيع اتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية فقامت بزيارتها ونظمت قصيدة بعنوان:"على ضفاف النيل مرة أخرى" تستعرض فيها خروج بني إسرائيل من مصر في عهد كليم الله موسى وهو ما أسمته "الخروج الأول" إلى أن تصل إلى خروج اليهود منها في العصر الحديث فيما سمي بـ"الخروج الثاني" وتؤكد على أن مصر تعيش داخل أبنائها من اليهود، وإذا كانوا قد خرجوا منها فإن مصر "الوطن" لم تخرج منهم حتى يومنا هذا، بل إن هناك توحدًا في الذكريات بين النيل وبين الشاعرة، فكلاهما شاهد على تاريخ مصر. غير أنه يؤخذ على عادا أهاروني أنها اعتبرت خروج اليهود من مصر في العصر القديم أو الحديث من قبيل البحث عن الحرية. تقول الشاعرة في قصيدتها "مرة ثانية على ضفاف النيل"

مرة ثانية على ضفاف النيل

---

68. المرجع السابق. ص 114.
69. يتسحاق بن نير : دافيد أوجست. ص 122.
70. المرجع السابق. ص 131.
71. المرجع السابق. ص 107.

من مصر أخرجهم
ولكن كيف يتأتى لهم أن يخرجوا مصر
من اليهود؟
فمن ارتوت من ماء النيل
بموج التبسم إليه تعود
وهى تطير عائدة كما طائر البلشون
إلى النيل العظيم العكر
على ظهر جاموس
ذلك أن من ارتوت من ماء النيل
بموج التبسم إليه تعود
بعد خمسة وثلاثين عامًا انقضت في حرية
يتمثل موسى في صندوقه
قبالة النهر الذي وسمها
ذلك أن من ارتوت من ماء النيل
بموج التبسم إليه تعود[72].

*****

72. يوسف سيه لافان: يتسحاق بن نير. هوتسأت أور عام 1983. ص9.